

مكونات النص الروائي:

أ. روتي كريمة

كلية الأدب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس

1- بناء النص الروائي:

انطلق يقطين في شرحه لمفهوم "بناء النص" من ربطه بمقولة "الزمن" و الأبعاد التي توصل إليها من خلال تقصي خصائص هذا المكون في الخطاب الروائي، فكما ذكر آنفا أن الزمن في الرواية زمانان زمن الرواية الذي يحكمه التسلسل الطبيعي وتطبعه سمة الخطية وزمن الخطاب الذي يميزه وجود استباقات واسترجاعات في بعض الأحيان وهذا ما يجعله يمثل صورة للتلاعب الزمني بأحداث القصة وفق رغبة الكاتب "لذلك فإننا في انتقالنا من زمن القصة إلى زمن الخطاب، تجدنا نتنقل من التجربة الواقعية ذهنياً (...) إلى التجربة الذاتية (ذات الكاتب)"⁽¹⁾

وعليه فزمني القصة والخطاب يرتبطان في إطار ما هو منطقي وما هو حالة عن الاختلال الزمني وتعتيم لواقع الأحداث من الناحية الزمنية. قد سبق للناقد وأن تحدث عن نمط ثالث من الأزمنة حينما درس زمن الخطاب الروائي، والمقصود هو "زمن النص"، فقد حصره يقطين في نقطة تقاطع بين (زمن الكتابة) و(زمن القراءة)

وبهذا يبني علاقة ترابط بين الكاتب والمتلقي. واعتماداً على هاذين التوجيهين "يقيم بناء النص على مستويين داخلي (هو زمن الكتابة) وخارجي (هو زمن القراءة)"⁽²⁾ و يمكن تلخيص هذه المفاهيم في الشكل الآتي:⁽³⁾

زمن النص زمن القراءة زمن الكتابة زمن القصة زمن الخطاب بعدي وخارجي قبلي وخارجي آني وداخلي، لكن التساؤل الذي يطرح سيكون حول التحليل الذي تبناه الناقد لتحقيق هدفه وهو التعرف على بناء النص من خلال مقولة الزمن وارتباطها بالنص، الخطاب والقصة.

2- بناء النص على المستوى الداخلي:

يركز البحث في هذا المستوى على دراسات يقطين لرواية "الزيني بركات" سيما تلك التي تشغل على (زمن القصة) في علاقتها (بزمن النص).

فالمادة الحكائية تمثل مادة تاريخية ذلك أنها تجسد فترة مرت في تاريخ مصر (الأحداث وقعت في القاهرة) وإلى جانب ذلك تروي قصة "حياة" إن تعلق الأمر "بالزيني بركات" كشخصية لكن ما يهم في هذا المجال هو كون (زمن القصة) جاء سابقاً على (زمن النص) ويقصد بهذا الأخير زمن السرد⁽⁴⁾ إلى جانب (زمن الخطاب) الذي يمثل زمن الحاضر في المحكي، إذ يتم الانطلاق من حدث محوري معين سابق ليعود

الراوي إلى الماضي ثم يستمر في خطية زمنية يكسرها الخطاب مرة أخرى باستباقات و استرجاعات وهذا ما يشملها يقطين في قوله: «بهذه الطريقة "ييني" الغيطاني نصه الروائي، و معنى ذلك أنه أخذ المادة الحكائية الخام (912م-923م) وأعطاهما شكلا أي بناء مختلفا و جديدا عما اعتدناه إنه و هو ييني نصه وفق هذا الشكل ينتج عالما زمنيا جديدا، و من خلال عملية الإنتاج هاته يقدم دلالة معنية»⁽⁵⁾ فمن خلال مقولته يجمع بين الأزمان السابقة، بحيث يتم الانتقال من (زمن القصة) الجسد في المادة الحكائية إلى (زمن الخطاب) وهو المندرج ضمن بناء العالم الزمني الجديد وكل ذلك بغية الوصول إلى دلالة تختص بالكاتب وترتبط بزمنية النص الذي يشملهما كليهما.

ولو عدنا إلى "تحليل الخطاب الروائي" نجد أن يقطين اعتمد الإشارات الزمنية والتاريخية لتصنيف التمهصلات الكبرى في الرواية، لكنه في تحديده لبناء نص "رواية الزيني بركات" ينطلق من «إشارات أخرى بنائية ومتجلية كتابيا من خلال توزيع النص إلى أقسام أو فصول أو أبواب أو ما شابه ذلك، وهذا التوزيع لا صلة له بالخطاب (كمظهر نحوي) ولكن علاقته متينة بالكاتب كترهين كتابي (نصي)»⁽⁶⁾ فالأمر يتعلق بالصياغة التي يوزع الكاتب وفقها مادته الحكائية على طول النص الروائي.

يذكر يقطين بهذا الخصوص التوزيع الذي اعتمده جمال الغيطاني في روايته "الزيني بركات" إذ قسمها إلى سرادقات⁽⁷⁾

ثمانية إمتد كل واحد منها على صفحات تقارب تعدادها ما بين الأول والخامس إذ تراوحت بين (30-48 صفحة) أما باقي السرادقات فتعد على الأصابع هذا بغض النظر عن مذكرات الرحالة الإيطالي التي استهل بها المتن الحكائي واختتم بها، وحاول الناقد أيضا ربط هذه الأقسام والأحداث التي تتضمنها بامتدادها الزمني كما هو وارد في الرواية، فوجد أن السرادقات الأول، الثاني، الثالث و بدايات الرابع تمتد من 912 هـ إلى 920 هـ أما ما تبقى فيتم الانتقال من 920 هـ إلى 923 هـ⁽⁸⁾ ولعل يقطين من خلال هذه العملية؛ أي إحصاء الصفحات وكذا الامتداد الزمني، يقصد م لا ينظر يقطين إلى ثنائيه (الشتاء والصيف)، بوصفها تتابع زمني فحسب، بل إنه يعطيها أبعادا دلالية تتعلق بالتمفصلات الكبرى التي صنفها في دراسته للخطاب الروائي، محاولا إسقاط السواد المستوحى من الشتاء والبياض المستوحى من الصيف على الوقائع التي توالى في الرواية و ما تخللها من سواد شكل الخوف والاضطراب، وبياض فيه ملمح الاستقرار والصفاء، ولتوضيح ذلك ركز على ثلاث وحدات سبق ذكرها وهي (التعين- اللقاء- الحرب والهزيمة) و في قراءة له بهذا الخصوص يقول: "في الشتاء والذي يشمل ثلثي النص نجدنا أمام "حرب" داخلية يخوضها جهاز البصاصين ضد الشعب في شخص "الجهيني" وفي الصيف

نجدنا أمام "حرب" خارجية تجري داخلها من خلال الاحتلال العثماني، فالشتاء طويل ولا يلبس فيه السلطان إلا الصوف الأسود، و يتسع الشتاء للحركتين الأولى (التعيين) والثانية (اللقاء) بينما نجد الصيف قصيرا الحرب (الهزيمة) وفيه يلبس السلطان اللباس الأبيض⁽¹¹⁾ فالملحوظ أن تقسيم الأحداث على الفصول السنوية وبالأخص (الشتاء والصيف) لم يأت عبثا بحيث نجد قد اكتسب عمقا جعل بناء النص في ارتباطه بالزمن أشبه بالدائرة ذلك أن اضطراب الأوضاع بين شتاء و صيف لا ينفك يزداد حدة وأجواء الهزيمة تستمر في ظل، السيطرة العثمانية التي يمثلها الزيني بركات بعدما عين محتسبا من جديد، وفي إطار البحث في البناء النصي يخلص الناقد يقطين إلى: "معينة أن اللعب الزمني بمختلف أشكاله و صوره، وتكسير خطية الزمن، وترهين الماضي السابق (القصة) في الحاضر (الخطاب) كلها تبن لنا أن الكاتب وهو يبني النص زمنيا يقدم لنا نصا مفتحا"⁽¹²⁾ و لو حاولنا ربط هذه المقولة بما قيل حول التقسيمات لوجدنا أن الهزيمة تشكل بداية أكثر منها نهاية لكونها إيذان ببدء مرحلة جديدة تحت وطأة العثمانيين مع استمرار الظلم و السواد.

وانطلاقا من هذه القرارات يتضح أن نظرة الكاتب للزمن لم تعد نظرة سطحية وإنما لها شديد الصلة ببناء النص داخلها نظرا للدلالات التي استطاع الناقد رصدها على مستوى النص وزمنه و ما يربطه من علاقات من زمن القصة و زمن الخطاب.

3- بناء النص على المستوى الخارجي:

تعرض سعيد يقطين في دراسته لهذا المستوى إلى مفهوم (زمن القراءة) و هذا يعني إدراجه لعنصر له فاعليته و دوره في إعادة بناء النص بعدما تنغلق بنيته اللغوية اثر إنهاء الكاتب لها زمن الكتابة، وهذا ظاهريا، فالحديث عن انغلاق النص أو انفتاحه شكل مسألة خلاف لدى النقاد، " فالنص المفتوح نص مغلق، غير أن قيمة الانغلاق هذه ايجابية لدى "ايكو" على عكس الحال عند "بارث"، إذ هذا النص المغلق (...) هو نص منفتح على أية قراءة، و هكذا فالنص المغلق عند "ايكو" هو النص الذي يفتح على كل احتمالات التفسير" (13).

والملاحظ هنا هو الخلط بين المفهومين فما اعتبره "ايكو" نصا مغلقا عده "بارث" نصا مفتوحا و قابله بمصطلح النص "المكتوب" أما النص المفتوح عند ايكو فيقابله النص "المقروء" عند بارث "و يقول ايكو، انك لا تستطيع استخدام النص {المفتوح} كما تشاء، وإنما فقط كما يشاء النص لك أن تستخدمه" (14).

سمة التناقض هذه توحى لنا بأن القارئ أضحى متحررا في تعدد قراءاته وتأويلاته تارة ومحصورا من قبل المؤلف في دائرة النص الذي يقرؤه تارة أخرى. وما هذا إلا مثال عن الاختلافات في تحديد المفاهيم لدى النقاد غير إن يقطين له منظوره الخاص والذي أسسه استنادا على ما قدمه "ميشيل" حول انفتاح وانغلاق الخطاب و الحكي ونجد يقطين (Michel) (Arrivé)

ليتسنى له تجلي يقيم مقارنة بين انغلاق وانفتاح النص والقراءة⁽¹⁵⁾ خصوصيات النص من خلال القراءة المطبقة عليه، ولقد صور "الانفتاح والانغلاق في علاقتهما بالبناء الداخلي والخارجي (...) على هذا النحو:

- 1- النص منفتح و القراءة منفتحة.
- 2- النص منفتح و القراءة منغلقة.
- 3- النص منغلق و القراءة منفتحة.
- 4- النص منغلق و القراءة منغلقة. " (16)

تلك هي الصور التي يمكن توقعها في العلاقة القائمة بين النص و القراءة لكن الناقد ركز على الصورتين الأولى و الثانية باعتباره ينطلق من أن النص المدروس (الزيني بركات في هذا البحث) يعد نصا منفتحاً لا منغلقاً وهذا بتقصيه لأراء نقاد حول المتون الروائية التي عني بدراستها.

وسيختص البحث هنا بوجهات النظر التي تحدثت عن رواية الغيطاني.

يذكر يقطين رأي "أحمد محمود عطية" مثلاً و الذي كانت "قراءته منغلقة" إذ نظر إلى النص المنفتح كإسقاط لما كان سائداً في عصر الكاتب من ظروف سياسية سيما هزيمة 1967 بمصر⁽¹⁷⁾ فوضع النص في مجال محصور، و النظر إليه بمنظار ضيق يجعله في دائرة تسمه بنفس الخصوصيات التي تطبع نصوصاً سابقة عنه أو

معاصرة له، لكن هذه النظرة تختلف عند الحديث عن "القراءة المفتوحة" وكمثال عنها يورد يقطين رأي "رضوى عاشور" التي نفت مبدأ الإسقاط وقالت بالتشابه وتقصد التشابه بين الماضي والحاضر والتقارب بين شخصيات وأحداث الماضي مع تلك الموجودة في الحاضر المعاش⁽¹⁸⁾ وبالعودة إلى النص الروائي تتضح علاقة التشابه الكامنة خلف توالي الهزائم إلى جانب نماذج الشخصيات التي صورها الغيطاني في نصه والتي توجد لها نسخ في زمن الحاضر، فالأمر يتعلق في الأصل بنظرة النقاد عموماً إلى الزمن في بعده البنائي للنص سواء على المستوى الداخلي أو المستوى الخارجي.

ويخلص الناقد من خلال بحثه في بناء النص على مستوييه الاثنين إلى أن "انفتاح الزمن يتقدم إلينا من خلال وعي جديد للزمن سواء على صعيد الكتابة أو التجربة أو الوعي، وانفتاح زمن النص الداخلي على القراءات المفتوحة "الممكنة" خير مؤشر على كون بناء النص المحلل يأتي بصورة جديدة تحمل كتابة جديدة ووعياً ودلالة جديدة للزمن عكس ما نرى في المتن الروائي التقليدي"⁽¹⁹⁾، ولعل ما يقصده هو أن النص مفتوح لكن القراءة تطبع بذات السمة إن كانت النظرة إلى الزمن باختلاف أنماطه (زمن الكتابة، زمن القصة، أو زمن القراءة) نظرة متعمقة تجعل له دلالات و أبعاداً تعطيه قيمة جوهرية في الدراسة النقدية.

4- البنيات السوسيو نصية:

سعى علماء اللسانيات سيما دعاة البنيوية الصورية إلى عزل النصوص عن سياقها الخارجي في دراساتهم مركزين جل اهتماماتهم على

البنية اللغوية التي تأسست عليها. وهذا ما بدا جليا في دراسة يقطين لجانب الخطاب في الأعمال الحكائية حينما عرض آراءهم وبحوثهم الخاصة بهذا المجال. والمنطلقة - في الأساس - من اعتبار الخطاب متتالية لجملة أو تجاوز إلى ما وراء الجملة لسانياتيا.

تبرز من خلال ما قيل، نقطة اختلاف بين دراسة الخطاب الروائي والنص الروائي، فمن بين مكونات هذا الأخير والتي صنفها سعيد يقطين يذكر مكون "البنيات السوسيو نصية" ومن خلال المصطلح يتضح المزج القائم بين ما هو "سوسولوجي" وما هو "نصي" وبالتالي يمكن القول إن ثمة صلة تربط النص كبنية لغوية بما هو اجتماعي أي خارج لسانياتي، وهذا لأجل رصد الدلالات من خلال القراءة، وعن ذلك يقول يقطين "كل نص كيفما كان نوعه يتم إنتاجه ضمن بنية اجتماعية محددة، وتكمن إنتاجيته في كون التفاعل يحصل معه في إطار البنية نفسها"⁽²⁰⁾، عامل التفاعل إذن هو بمثابة نقطة التقاطع بين البنيوي في النص والاجتماعي، فلا تنحصر الدراسة في الجانب اللغوي بل تتعداه إلى تقصي الدلالات والتأويلات التي ينتجها من خلال البنية الاجتماعية المتممي إليها، فأول مجال للتفاعل يمكن الحديث عنه هو "اللغة" فالكاتب يستعين بلغة لها قواعدها ونظمها الخاصة وبنياتها النحوية، الصوتية والتركيبية والتي تعد بنية نصية مفتوحة على بنيات نصية مغايرة لتشكّل في الأخير بنية نصية كبرى⁽²¹⁾.

ومن خلال ذلك يتجلى النص كبنية سوسيو نصية اكتسبت خصائصها عبر الزمن ضمن مجتمع معين فاللغة تتحدد "كنظام تزامني يتضمن ماضيه ومستقبله اللذين هما عنصراه البنيويان الملازمان:

أ- نزعة التقليد القديم كواقعة أسلوب، أي الخلفية اللسانية والأدبية التي لا نحس بها كأسلوب متجاوز وبال.

ب- الميولات التجديدية في اللغة وفي الأدب، والتي نشعر بها كتجدد للنظام⁽²²⁾، فضمن هذا النظام اللغوي البنيوي يتج النص وقد تفاعل مع هذه البنيات المختلفة وذات الشيء تحدث عنه "زيمبا" حينما قال "بوسولوجيا النص الأدبي" معتبرا المظهر اللفظي وسيطا بين النص والمجتمع.

يعود يقطين للحديث عن البنيات المختلفة وتمظهرها داخل النص الروائي، فيعتبر وجود الشخصيات المختلفة والمتباينة في طباعها ضمن النص وجودا مستوحى من الواقع⁽²³⁾، إذ رغم القول باستقلالية النص كنسق لغوي ينظر إليه من وجهة أخرى كعالم متخيل ينهل تفاصيله من العالم الواقعي سواء في شخصياته التي قد تتماثل مع تلك الموجودة في الحقيقة أو في أحداثه وزمانه ومكانه، ويندرج كل هذا ضمن ذلك الكل الذي يقصده الناقد وهو البنية الاجتماعية.

ولو ربطنا بين هذه الآراء وما تضمنته رواية "الزيني بركات" للاحظنا أن ما وقع من أحداث متعلقة بالهزيمة و دخول العثمانيين؛ لا يتعد عما عاشته مصر في تاريخها الماضي، ثم إن شخصية "الزيني" أو "سعيد الجهيني" وغيرهما صور لشخصيات إما تزعمت العامة، أو عارضت السلطة المسيطرة في زمن كله خوف واضطراب من جراء الحرب والظلم.

أما الجانب الخاص "بالبنية السوسيو نصية" فيقرنه "سعيد يقطين" بالأوضاع التي سادت في العالم العربي و التي تأثر بها الكتاب فأنتجوا

نصوصاً روائية تفاعلت مع ما هو اجتماعي وسياسي وغيره. فحسب رأيه "إن هذه البنية السوسيو نصية يهيمن فيها بكلمة موجزة النص "الإيديولوجي الاشتراكي" يبرز هذا في تضخم البنية السوسيو لسانية التي تمتح منه" (24)

نلاحظ تعالق البنيات التاريخية والاجتماعية بما حوته من إيديولوجيات بدت في النصوص التي عاجلت وقائع الاستبداد والرغبة في التحرر لدى كل الشعوب فنطق لسانها بخطاب يعبر عن ذلك.

قائمة المراجع :

- (1): سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، (النص و السياق) المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان، ط 1 ، 1989، ص 47.
- (2): سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 47.
- (3): محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي، (على ضوء المناهج النقدية الحديثة) دراسة في نقد النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، سوريا ، دون طبعة ، 2003 ، ص 190.
- (4): سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 50.
- (5): المرجع السابق ، ص 53.
- (6) : المرجع السابق ، ص 55.
- (7): ابن منظور، لسان العرب، المجلد 10، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط6، 1997، ص158.
- (8): السرداق: سردق، ما أحاط بالبناء و الجمع سرادقات(...) و السرداق كل ما أحاط بشيء نحو الشقة في المضرب
أو الحائط المشتمل على الشيء (...) ما يمد على صحن الدار
- (9): سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 62.

- (10): جمال الغيطاني ، الزيني بركات ، ص 176 ، نقلا عن سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، ص 62.
- (11): انفتاح النص الروائي، ص 67.
- (12): المرجع السابق، ص 67.
- (13): ميجان رويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من خمسين تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص 181.
- (14): المرجع السابق ، ص 181.
- (15): انفتاح النص الروائي، ص 77.
- (16): المرجع السابق ، ص 77.
- (17): المرجع السابق، ص 78.
- (18): المرجع السابق، ص 81.
- (19): سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 87.
- (20): المرجع السابق ، ص 134.
- (21): ينظر المرجع السابق، ص 134.
- (22): رومان جاكوبسون و يوري تينيانوف، مشاكل الدراسات الأدبية و اللسانية، ضمن نصوص المنهج الشكلي، تر إبراهيم الخطيب، ص 102.
- (23): ينظر سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 140.
- (24): المرجع السابق ، ص 140